الدرس (12): ترجمة مصطلحات النحو الوظيفي

تمهيد:

يستمد النحو الوظيفي قيمته اللسانية من الأدوار المنوطة به في إدراك الظاهرة اللغوية على مستوى التفاعل الاجتماعي، وتحت مسمى النشاط التواصلي للأفراد؛ الأمر الذي من شأنه تعزيز المخزون التداولي لديهم، فضلا عن تفسير القوانين والقواعد التي يحتكمون إليها في إنتاج خطاباتهم، بما يتوافق وطبيعة النظام اللغوي لديهم، وانطلاقا من هذا التصور راح النحو الوظيفي يصطنع دليله الاصطلاحي الذي أخضعه الباحث العربي للترجمة.

نظرية النحو الوظيفي (The Theory of Functional Grammar):

تقوم اللغة على عدد من المباحث اللسانية التي تتدخل في بناء نظامها العام، وتتحكم في فهم طبيعة الوظيفية؛ نخص بالذكر المبحث النحوي، خاصة النحو الوظيفي ويقصد به «مجموعة القواعد التي تؤدي الوظيفة الأساسية للنحو؛ وهي ضبط الكلمات، ونظام تأليف الجمل، ليسلم اللسان من الخطأ في النطق، ويسلم القلم من الخطأ في الكتابة»[1].

ويعد الباحث اللساني الهولندي "سيمون ديك" المؤسس الأول لنظرية النحو الوظيفي سنة 1978، حيث قام بتحديد ملامحها المنهجية في كتابه "النحو الوظيفي" (Functional Grammar)؛ وهو ينطلق في وضع مبادئها من فكرة التواصل الذي يمثل الوظيفة الأساسية للغة؛ ولهذا فإن بناء النحو لديه مرتبط أساسا بالوظيفة التواصلية[2].

إن الاهتمام الأول بالنسبة نظرية النحو الوظيفي يتمثل في دراسة مختلف الممارسات اللغوية من منظور ما تحققه من حاجات تواصلية؛ وهذا ما يفرض تحليل العلاقات الممكنة بين اللغة بوصفها نظاما والاستعمال اللغوي بهدف التواصل.

لقد ركز سيمون ديك في تحليله النحوي الوظيفي على الظاهرة اللغوية أثناء الاستعمال تحقيقا لمطلب التواصل بين الأفراد؛ وهي الوظيفة الأساسية للغة أو ما يعرف بالتفاعل اللغوي، والنشاط التواصلي في نظره لا

[1] – عبد العليم إبراهيم، النحو الوظيفي، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د.ت.ط)، ص (هـ–و).

[2] – ينظر: سعيدة علي زيغد، تحليل الخطاب الحواري في نظرية النحو الوظيفي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014، ص19–20.

يسلم من التعقيد كونه يقوم على خاصية التفاعل بين الأطراف المشاركة فيه؛ والتي من شأنها إحداث تغيرات معتبرة على مستوى المخزون التداولي لديهم[1].

يتحقق التفاعل اللغوي بين الأفراد عبر الكلام استنادا إلى ما يملكونه من مخزون تداولي اجتماعي؛ حيث يعتمدون عليه في إنتاج خطاباتهم، وكذلك فهم وتأويل خطابات الآخرين في ضوء القواعد والقوانين الخاصة بالنظام اللغوي لديهم.

مصطلحات النحو الوظيفي:

تتميز مصطلحات النحو الوظيفي بالكثرة، فضلا عن التداخل في تحديد بعض مفاهيمها، وقد حظيت باهتمام الباحثين العرب من حيث الإحصاء، والتعريف، والتمثيل، والترجمة، وبما أن المجال لا يتسع لذكرها جميعا سنكفي بثلاثة مصطلحات على سبيل التمثيل؛ ألا وهي الوظيفة، والإحالة، والقدرة.

1- مصطلح الوظيفة (Function):

يأخذ هذا المصطلح اللساني أكثر من معنى؛ فهو يدل على الدور الذي تؤديه اللغة بوصفها نظاما كليا متكاملا في التعبير والتواصل هذا من جهة، كما يفيد معنى العلاقات الدلالية والتركيبية والتداولية القائمة بين مختلف مكونات الجملة[2].

وقد اقترح الباحث اللغوي "رومان ياكبسون" تصورا نظريا بالنسبة للأثر الوظيفي للغة؛ حيث قامت نظريته على اعتماد ست وظائف لغوية، راح يستلهمها من نظرية الاتصال (Communicative Theory) سنة 1948؛ انطلاقا من وجود ستة عناصر أساسية؛ هي[3]:

- المرسل (emitter)
- المتلقي (receptor)
- قناة الاتصال (communicative channel)
- الرسالة (message)

[1]- ينظر: سعيدة علي زيغد، تحليل الخطاب الحواري في نظرية النحو الوظيفي، ص21.

[2]- ينظر: علي آيت أوشان، اللسانيات والبيداغوجيا نموذج النحو الوظيفي (الأسس المعرفية والديداكتيكية)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص181.

[3]- ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون، الجزائر، ط2، 2005، ص148.

- شفرة الاتصال (code)
- المرجع (referent).

وتقوم هذه العناصر بتوجيه النشاط التواصلي وتفعيله، كما تتحكم في أدائه، وقد توصل ياكبسون في بناء نظريته حول وظائف اللغة الإنسانية إلى فكرة أنها تقوم بأداء ست وظائف لسانية مختلفة أثناء عملية الاتصال؛ متمثلة في[1]:

- **الوظيفة التعبيرية** (expressive function): تختص بالعلاقة القائمة بين المرسل والرسالة، وتهدف إلى الكشف عن موقف المرسل من الرسالة اللغوية.
- **وظيفة النزوع** (conative function): تختص بالمتلقي في علاقته بالرسالة، وتهدف إلى الكشف عن التأثير في المتلقي.
- **وظيفة إقامة الاتصال** (phatic function): تختص بالقناة أو بنية التلقي من حيث القدرة على الاتصال بهدف بناء العلاقات الاجتماعية، مثل: عبارات الترحيب والتحية.
- **الوظيفة الإنشائية** (poetic function): تختص بالرسالة اللغوية دون غيرها، وتهدف إلى تطويرها من الناحية الشكلية.
- **الوظيفة الواصفة للغة** (metalinguistic): تختص بشرح الكلمات في البنية اللغوية للرسالة؛ من أجل توضيح شفرة الاتصال؛ وبذلك تسهل عملية التواصل اللغوي.
- **الوظيفة المرجعية** (referential function): تختص بالمرجع في علاقته بعناصر الاتصال الأخرى تأثيرا وتأثرا.

ويختص النحو الوظيفي بوجود ثلاثة أنواع رئيسية من الوظائف (Functions)؛ تتعلق أساسا بالممارسات اللغوية؛ وتتصل بشكل كبير بأهم مباحث النظام اللغوي؛ متمثلة في الدلالة، والتركيب، والتداول، وانطلاقا منها يستمد النحو قيمته الوظيفية؛ وفق هذا التصور[2]:

[1]- ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص148-149.

[2]- ينظر: علي آيت أوشان، اللسانيات والبيداغوجيا نموذج النحو الوظيفي (الأسس المعرفية والديداكتيكية)، ص182-183.

– **وظائف دلالية:** وتشمل كل ما يؤدي الدلالة اللغوية؛ مثل الطلب والتنفيذ، والتقبل والاستقبال والإفادة ودلالة الزمان والمكان؛ وهي تنقسم إلى وظائف مركزية وأخرى هامشية.

– **وظائف تركيبية:** وتشمل كل ما يتعلق بالتركيب اللغوي؛ مثل وظيفة الفاعل، ووظيفة المفعول وغيرهما.

– **وظائف تداولية:** وتستند إلى مكونات الجملة، وما يربط بينها من علاقات على مستوى البنية الإخبارية؛ كما تستند إلى مكونات الجملة بالنظر إلى العلاقات القائمة بين المتكلم والمخاطب على مستوى المقام وهذا ما يميزها عن الوظائف التركيبية والدلالية.

2– مصطلح الإحالة (Reference): والمقصود به تلك العلاقة القائمة بين العبارات اللغوية التي يستعملها المتكلم، وما تحيل عليه في الواقع من أشياء وأشخاص؛ حيث تتميز عباراته بكونها ذات ثلاثة أبعاد أو عناصر رئيسية؛ هي: الدال؛ أي الأصوات اللغوية، والمدلول؛ وهو المعنى أو المفهوم المتعلق بالأشياء التي يقصدها أو الأشخاص الذين يشير إليهم، والمدلول عليه أو المرجع؛ وهو ما تحيل عليه العبارات من موجودات في العالم الخارجي، ويمكن التمثيل لذلك بالقول: "حضر الطلبة الدرس"؛ فالدال عبارة عن الأصوات المذكورة، والمدلول يتمثل في الأشخاص الذين يدرسون في الجامعة، والمدلول عليه يشمل كل الأشخاص الذين تنطبق عليهم خاصية الدراسة في الجامعة[1].

تتميز اللغة من الناحية النحوية بطبيعتها الإحالية؛ التي تتدخل بشكل كبير في عملية الفهم والتفسير التي يتطلع إليها المتكلم والمخاطب معا؛ ومن هنا تستمد الممارسات اللغوية كفاءتها الدلالية، ورصيدها التداولي، ولهذا فإن «الإحالة في النحو الوظيفي فعل تداولي يتوخى منه المتكلم جعل المخاطب يتعرف على المحال عليه، وتتم هذه العملية عن طريق الإضافات المتوالية للمعلومات التي يعتبرها المتكلم تقرب المخاطب من التعرف على الذات التي يقصد الإحالة عليها، ويعد الفعل الإحالي فعلا ناجحا حين يصبح المحال عليه معينا لدى المخاطب؛ أي حين يتعرف المخاطب على المحال عليه تعرفا تاما»[2].

إن اللغة تستمد نشاطها التداولي من امتلاكها خاصية الإحالة على المعنى؛ التي يشترك فيها المتكلم والمخاطب حتى يتحقق التواصل اللغوي بينهما؛ أي أن نجاح الفعل التداولي مرهون بنجاح الفعل الإحالي، وأن أي خلل على مستوى الإحالة اللغوية من شأنه أن يعيق النشاط التداولي لدى الأفراد.

[1]– ينظر: علي آيت أوشان، اللسانيات والبيداغوجيا نموذج النحو الوظيفي (الأسس المعرفية والديداكتيكية)، ص136–137.
[2]– نفسه، ص137.

أما عن العناصر المنتجة للفعل الإحالي بوصفه فعلا تداوليا؛ فتتمثل في أربعة عناصر رئيسية؛ هي «الخطاب، وما يحيل عليه حضورا أو ذكرا، والمتخاطبين، والمخزون الذهني الذي يعتقد المتكلم توافره لدى المخاطب إبان التخاطب»[1].

وتقوم الإحالة على مبدأ الربط بين هذه العناصر؛ أي الخطاب الإحالي وما يحيل عليه، والمخاطب، والمخزون الذهني الذي يمتلكه، أما المتكلم فيتصل اتصالا وثيقا بالخطاب الذي ينوب عنه، وكلما تحقق التوافق بين بين المتكلم والمخاطب على مستوى المخزون الذهني كلما تحققت القصدية من وراء الفعل الإحالي.

أنواع الإحالة:

تتخذ الإحالة اللغوية في النحو الوظيفي عدة أشكال؛ حسب طبيعة العلاقة القائمة بين المحال والمحال عليه، وبالرغم من اختلافها وتعددها إلا أنها تشترك في كونها تتم في سياق النشاط التواصلي، وهذا ما يضفي عليها خاصية التداول؛ وتتمثل في[2]:

- **إحالة استيباقية** (Cataphoric reference): وتكون في سياق العلاقات القائمة بين مكونين أحدهما سابق والآخر لاحق، وكذلك بين حدثين أو واقعتين تنتميان للفعل الخطابي نفسه.

- **إحالة إطلاق** (Unspecific reference): وهي إحالة ما هو غير موجود بشكل خاص أو على سبيل التحديد والتعيين في ذهن المتكلم أثناء عملية التلفظ؛ لذا فهي إحالة مطلقة.

- **إحالة بناء** (Constructive reference): وتكون فيها الذات المحال عليها غائبة وغير حاضرة على مستوى المخزون الذهني للمخاطب أثناء عملية التخاطب، ولهذا يقوم بعملية بنائها.

- **إحالة تعيين** (Identifying reference): وتكون فيها الذات المحال عليها حاضرة على مستوى المخزون الذهني للمخاطب.

- **إحالة تقييد** (Specific reference): وتكون فيها الذات المحال عليها محددة في ذهن المتكلم أثناء عملية التخاطب.

[1]- محمد الحسين مليطان، نظرية النحو الوظيفي (الأسس والنماذج والمفاهيم)، منشورات ضفاف (بيروت، لبنان) / منشورات الاختلاف (الجزائر العاصمة، الجزائر)، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014، ص43.

[2]- ينظر: نفسه، ص43-44.

- **إحالة حضور** (Deictic reference): وهي إحالة إشارية على موقع أو مكان بعينه يوحي به الموقف التواصلي؛ حيث يتم تحديد هذا الموقع بالنظر إلى الاتجاه المشار إليه؛ مثل:

- ✓ ناولني هذا الكتاب (إحالة حضور تشير إلى القريب)
- ✓ ناولني ذاك الكتاب (إحالة حضور تشير إلى البعيد)
- ✓ ناولني ذلك الكتاب (إحالة حضور تشير إلى الأبعد)

- **إحالة داخلية** (Internal reference): ويتعلق مجالها بخطاب سردي خالص؛ حيث تحيل إلى أربعة عناصر أساسية؛ الأول والثاني عبارة عن ذوات؛ وهما السارد والمسرود له، والثالث والرابع يتصلان بسياق السرد؛ ويتمثلان في المكان والزمان.

- **إحالة عموم** (Generic reference): ويكون فيها المحال عليه عبارة عن ذات أو مجموعة من الذوات العامة؛ مثل: الأطفال أحباب الله.

- **إحالة عود** (Anaphoric reference): وتشير إلى شيء أو موقع ما يكون قد ورد في خطاب سابق؛ مثل: قرأت هذا الكتاب المفيد.

- **إحالة مركبة** (Complex reference): وتقوم على إحالة لفظ على آخر؛ حيث يحيل بدوره على ذات أخرى في الواقع الخارجي؛ مثل: زارني اليوم من زارك أمس.

3- مصطلح القدرة (Competence):

ويعني امتلاك المتكلم معرفة كافية بقواعد اللغة التي يعتمدها في إنتاج خطاباته المتعددة؛ حيث تسمح له بتحقيق مختلف الأغراض والحاجات بواسطة التواصل في الحياة الاجتماعية؛ ولهذا فإن «القدرة في النحو الوظيفي هي قدرة تواصلية تشمل القواعد التركيبية، والدلالية، والصوتية، والتداولية»[1].

تعد القدرة اللسانية بما توفره من معارف بقواعد اللغة ونظامها مكسبا استراتيجيا بالنسبة للمتكلم؛ حيث يستثمرها في صياغة خطاباته المتعددة التي يتوجه بها إلى سامع لا يقل رصيده اللساني قدرة على الفهم والتأويل، وهذا ما يتحكم في توجيه عملية التخاطب في اتجاه تحقيق مختلف الأهداف التواصلية.

[1] – محمد الحسين مليطان، نظرية النحو الوظيفي (الأسس والنماذج والمفاهيم)، ص43-44.

وبالنظر إلى أهمية هذا المفهوم في الدرس النحوي الوظيفي؛ يمكن تمييز ثلاثة أنواع من القدرة يجتهد المتكلم والمتلقي في اكتسابها؛ وهي تتدخل بشكل أساسي في إنتاجية الخطاب التواصلي؛ كما تعمل على إنجاحه بفضل الأثر التكاملي القائم بينها؛ وهي تتمثل في[1]:

- **قدرة إنجازية** (Illocutionary competence): المعرفة بنسق اللغة وقواعدها التي تعزز خطاب المتكلم وتمنحه القوة في الإنتاج والإنجاز.

- **قدرة تواصلية** (Communicative competence): وتشمل مجموع الملكات والمهارات التي يعتمد عليها المتكلم في عملية إنتاج الخطاب، والمخاطب أو السامع في عملية تلقيه وفهمه حسب ما يفرضه الموقف التواصلي بين مستعملي اللغة.

- **قدرة لغوية** (Linguistic competence): وتتمثل في امتلاك المتكلم والمخاطب أو السامع للمعرفة اللغوية بواسطة الاكتساب؛ حيث يتم اعتمادها في إنتاج الخطاب وفهمه، فضلا عن تأويل وتفسير مختلف العبارات المكونة له.

إن النحو الوظيفي يختص بمسألة الوصف اللغوي بالنسبة لمفهوم القدرات الذي يفيد معنى امتلاك المعارف والمهارات التي يحتاجها المتكلم في عملية الإنتاج الخطابي، وكذلك السامع في عملية فهم وتفسير هذا الإنتاج، أما الإنجاز الخطابي وما يتميز به من خصائص معجمية وتركيبية ودلالية ونحوية وصرفية فليس إلا انعكاسا لهذه القدرات.

[1]- ينظر: محمد الحسين مليطان، نظرية النحو الوظيفي (الأسس والنماذج والمفاهيم)، ص116-117.